Jurnal Ilmiah **ISLAM FUTURA**
Vol. 24. No. 1, February 2024, 129-149

MAQĀṢID DIRĀSAT AL-MA'RIFAH AL-TĀRĪKHIYYAH FĪ AL-QUR'ĀN AL-KARĪM

مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم

Souad Kourime
Moulay Ismail University, Morocco
e-mail: souadkourime@gmail.com

Abstract

The Holy Quran is the undisputed first source of science in the Islamic heritage. However, this source has faded in some human sciences that have been affected by positivist thought and Western epistemology, including the science of History. This paper aims to restore consideration of the Holy Quran as a methodological and cognitive source for historical studies. In order to achieve this goal, this paper invoked two aims of the study of historical knowledge in the Holy Qur'an, namely the purpose of methodological necessity and the purpose of cognitive sufficiency of the Qur'an as a source in the study of history. This paper relied on the qualitative approach, which starts by induction and description, then qualitative analysis, and ends with drawing conclusions. As a result, the paper invested the purposes of studying Qur'anic knowledge in the field of history to prove the cognitive value and methodological accuracy of the historical knowledge enshrined in the Holy Qur'an.

Keywords: *Purposes; Maqāṣid; Qur'an; History; knowledge*

Abstrak

Alquran adalah sumber ilmu pengetahuan pertama yang tak terbantahkan dalam warisan Islam. Namun, sumber ini telah memudar dalam sejumlah ilmu pengetahuan manusia yang telah terpengaruh oleh pemikiran positivisme dan epistemologi Barat, termasuk ilmu Sejarah. Artikel ini bertujuan untuk mengembalikan Alquran sebagai sumber metodologis dan kognitif untuk studi sejarah. Untuk mencapai tujuan tersebut, artikel ini mengangkat dua tujuan studi pengetahuan sejarah dalam Alquran, yaitu tujuan keharusan metodologis dan tujuan kognitif Alquran sebagai sumber dalam studi sejarah. Kajian ini mengandalkan pendekatan kualitatif, yang dimulai dengan induksi dan deskripsi, kemudian analisis kualitatif, dan diakhiri dengan penarikan kesimpulan. Studi ini menemukan, bahwa pengetahuan Qur'ani dalam bidang sejarah membuktikan nilai kognitif dan akurasi metodologis dari pengetahuan sejarah yang diabadikan dalam Alquran.

Kata Kunci: *Tujuan; Maqāṣid; Al-Qur'an; Sejarah; Ilmu Pengetahuan*

مستخلص

يعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأول للعلوم في التراث الإسلامي بلا منازع. ولكن هذه المصدرية اضمحلت في بعض العلوم الإنسانية التي تأثرت بالفكر الوضعي ونظرية المعرفة الغربية، ومن بينها علم التاريخ. وتهدف

* Corresponding author, email: souadkourime@gmail.com

Citation: Souad Kourime. "MAQĀṢID DIRĀSAT AL-MA'RIFAH AL-TĀRĪKHIYYAH FĪ AL-QUR'ĀN AL-KARĪM." *Jurnal Ilmiah Islam Futura* 24, no. 1 (2024): 129-149.

http://dx.doi.org/10.22373/jiif.v24i1.18118
©Universitas Islam Negeri Ar-Raniry. All rights reserved.

هذه الدراسة إلى إعادة الاعتبار للقرآن الكريم بصفته مصدرا منهجيا ومعرفيا للدراسات التاريخية. ولتحقيق هذا الهدف توسلت الدراسة بمقصدين من مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم وهما مقصد الضرورة المنهجية ومقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الكيفي الذي ينطلق من الاستقراء والوصف ثم التحليل النوعي الذي ينتهي بترتيب النتائج على مقدماتها. وقد خلصت الدراسة إلى استثمار مقاصد دراسة المعرفة القرآنية في مجال التاريخ لإثبات القيمة المعرفية والدقة المنهجية التي تتمتع بها المعرفة التاريخية المبثوثة في القرآن الكريم..

الكلمات الرئيسيّة: المقاصد؛ القرآن؛ التاريخ؛ المعرفة؛ المنهج

أ. المقدمة

إن لدراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم مقاصد متعددة تنبع من مدى أهمية مصدرية القرآن ومكانته من تلك المعرفة. وهي أهمية تجعل الدراسة المقاصدية مطلبا ملحا لإبراز مدى الضرورة المنهجية والكفاية المعرفية لحقائق القرآن في تغذية الدراسة التاريخية وتقييمها وتقويمها.

أسباب البحث في موضوع الدراسة:

تنطلق الدراسة المقاصدية للمعرفة التاريخية في القرآن الكريم من الاعتقاد الراسخ بالضرورة المنهجية والكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. وهو اعتقاد يغذيه الإيمان بمصدرية القرآن المنهجية والمعرفية في الفكر الإسلامي بشكل عام. وعلى أساس من هذه المحورية المصدرية انطلق علماء المسلمين قديما في تصنيفهم للعلوم، وينبغي أن ننطلق نحن أيضا في دراسة المعرفة التاريخية الموجودة في القرآن الكريم.

أما مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ فإن هذا البحث يدافع عنه من منطلق الاعتقاد في المصدرية المنهجية للقرآن الكريم في الفكر الإسلامي بشكل عام. وهو اعتقاد يعززه تعامل علماء المسلمين مع القرآن الكريم بصفته مصدرا لمنهج الاعتقاد والسلوك والتفكير وتحصيل المعرفة، إضافة إلى اعتباره مصدرا لمنهج الوصول إلى الحقيقة في مختلف مجالات الحياة ومناحيها.

وأما مقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ فإن هذا البحث يدافع عنه من منطلق الاعتقاد في المصدرية المعرفية للقرآن الكريم في الفكر الإسلامي. وهو اعتقاد يدعمه كون القرآن محورا للثقافة الإسلامية منذ نشأتها. فقد حظي هذا الكتاب بالتفاف أعلام الأمة الإسلامية حوله لفهم آياته وتدبر معارفه انطلاقا من إيمانهم بصلاحية القرآن لكل زمان ومكان، وشمول أحكامه وقابليتها لاستيعاب أحوال الإنسان.

أهداف الدراسة وأسئلتها:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مقصدين من مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم وهما:

– مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. وذلك من خلال الإجابة عن السؤال التالي: ما هي الأسباب المنهجية التي تدعو الدراسات المهتمة بالمعرفة التاريخية إلى معالجة قضاياها من زاوية قرآنية؟

– مقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. وذلك من خلال الإجابة عن السؤال التالي: إلى أي مدى يحتوي القرآن الكريم على مادة معرفية تسعف في معالجة القضايا التاريخية من زاوية قرآنية؟

حدود الدراسة وعلاقتها بالدراسات السابقة:

لقد تعددت الدراسات التي تعنى بالبحث التاريخي في القرآن الكريم، سواء من داخل المجال التداولي العربي الإسلامي أو من خارجه. وقد أبانت هذه الدراسات المتعددة عن اهتمامات بحثية مختلفة تلتقي في كونها تضع القرآن والتاريخ في بؤرة الضوء. غير أن هذه الدراسات اختلفت فيما بعد من حيث تقنيات الإضاءة والتعتيم، ومن حيث زاوية النظر للعلاقة بين القرآن والتاريخ.

أما تنوع الدراسات السابقة من حيث تقنيات الإضاءة والتعتيم فيظهر من خلال وجود دراسات مختلفة في موقفها من علاقة القرآن بالتاريخ اختلافا يتراوح بين الدفاع عنه والهجوم عليه. وأما تنوع الدراسات السابقة من حيث زاوية النظر فيظهر من خلال وجود دراسات مختلفة في منهج تعاملها مع القرآن والتاريخ بين جعل أحدهما موضوعا للدراسة والآخر أداة لها. فظهرت من ثم دراسات تعنى بتاريخ القرآن، والتاريخ في القرآن، وتاريخية القرآن، وتاريخانية القرآن.[1]

لم أجد أثناء استقراء الدراسات السابقة أي بحث يهتم بمقاصد المعرفة التاريخية في القرآن الكريم، أو بالأحرى مقاصد دراستها. فنتج عن ذلك إعداد هذا البحث العلمي الذي يبرز خصوصيات مقاصد الدراسة التاريخية التي تنصب على المعرفة القرآنية. وهو بحث يجمع في حدوده بين الممارسة النظرية والتطبيق العملي، كما يجمع بين أبعاد المعرفة وضوابط المنهج.

منهج الدراسة وخطتها:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الكيفي الذي ينطلق من الاستقراء والوصف ثم التحليل النوعي الذي ينتهي بترتيب النتائج على مقدماتها. وقد تمكنت هذه الدراسة من مناقشة مقصدين من مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم أولهما هو مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. وأثبتت من خلاله الحاجة المنهجية للمعرفة القرآنية في مجال الدراسات التاريخية على المستوى النظري المتمثل في نظرية المعرفة، والمستوى التطبيقي المتمثل في اتجاهات فهم التاريخ وتفسيره.

---

[1] ومن هذه الدراسات على سبيل المثال وليس الحصر:

– محمد عابد الجابري، *مدخل إلى القرآن الكريم*، ط1. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م).

– عامر الكفيشي، *حركة التاريخ في القرآن الكريم*، ط1. (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م).

– أنجيليكا نويفرت، *القرآن والتاريخ: علاقة جدلية، تأملات حول تاريخ القرآن والتاريخ في القرآن*، ترجمة إسلام أحمد، مركز تفسير للدراسات القرآنية.

– محمد أركون، *القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني*، ترجمة هاشم صالح، ط1. (بيروت: دار الطليعة، 2001م).

– نصر حامد أبو زيد، *نقد الخطاب الديني*، ط3. (بيروت–لبنان: المركز الثقافي العربي، 2007م).

– عبد الله عيسى لحيلح، *الجدلية التاريخية في القرآن الكريم*، الوسام العربي للنشر والتوزيع، 2011م).

أما المقصد الثاني فهو الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ، وأبرزت من خلاله الخصوصيات التي يضفيها القرآن على الدراسات التاريخية وبعض مجالات المعرفة التاريخية فيه، كالتأصيل لمفهوم التاريخ، وتغطية حاجات التاريخ النقلي، وإرساء دعائم السنن التاريخية التي تحكم سير المجتمع البشري.

ب. البحث

1. المقصد الأول: الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ:

تظهر الحاجة إلى مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في مجال الدراسات التاريخية على المستويين النظري والتطبيقي. وهي حاجة ملحة ترتقي إلى مقام الضرورة الحتمية التي لا يمكن لمسار دراسة التاريخ أن يستقيم في معزل عنها. ويضاف إلى ذلك أن هذا المقصد مطلب أساسي في تصحيح أي إنتاج معرفي للدراسات التاريخية، إذ لا يمكن لذلك الإنتاج أن يضمن صحة مخرجاته ما لم ينطلق في التنظير لدراسة التاريخ من مصدرية القرآن المنهجية، وما لم يعتمد على تلك المصدرية أيضا في تنزيل الإطار النظري وتطبيقه عمليا على قضايا وموضوعات التاريخ البشري.

1. 1. المستوى النظري للضرورة المنهجية:

تحتاج نظرية المعرفة في مجال الدراسات التاريخية إلى الالتزام بالمقصد الأول نظرا لما أبانت عنه من قصور وعجز ناتجين عن خلل جسيم سببه الأساس هو الاعتماد الكلي على المنهج الغربي في معالجة قضايا التاريخ الإنساني ودراستها. ومعلوم أن المنهج الغربي ينتمي إلى مجال تداولي مخالف تماما للمجال التداولي العربي الإسلامي، وأن مدى دقته العلمية وموضوعية منطلقاته القبلية يبقى محل مساءلة ونظر. فهو منهج يأخذ "بنظرية معرفية تستبعد اعتبار الوحي مصدرا للمعرفة من أطرها المرجعية، بل تنظر إليه وإلى ما ينبثق عنه من معرفة على أنها خرافة أو معرفة غير علمية في أحسن الأحوال."[2]

يقف المنهج الغربي في دراسة التاريخ على طرف نقيض من مقصد مصدرية الوحي للمعرفة التاريخية. بل إنه يقصد إلى إبطال تلك المصدرية لأنه يعتقد في مناقضة النصوص الدينية للموضوعية والمنهج العلمي. وإذا كنا ندافع عن مقصد الضرورة المنهجية للقرآن بالنسبة لنظرية المعرفة في مجال التاريخ، فإن المنهج الغربي يدافع عن مقصد التحرر المنهجي من مصدرية الدين في دراسة التاريخ. ويعتبر المنهج الغربي أن النص الديني عاجز عن التعمق في كنه أي قضية من القضايا التي يدرسها العلم، وغير قادر من ثم على إدراك حقائقها.

إن هذا المسلك النظري الذي يحذوه المنهج الغربي في إقصائه للنص الديني من مصدرية المعرفة يرجع إلى موقفه من موضوعات الدين ومنهجيته. فبحسب المنهج الغربي فإن موضوع الدين ينحصر في الغيبيات والخوارق

[2] طه جابر العلواني، *إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: ورقة عمل*، ط1. (القاهرة: دار القارئ العربي، 1412هـ/1991م)، ص80.

التي تقدم تفسيرا بدائيا وسطحيا للقضايا التي يتناولها الدين. أما من حيث المنهج فإن النظرة الغربية للدين تراه بمنظار سلبي، حيث تعتبر أنه يطوق حركة العقل ويحد من حريته ويفرض عليه قيودا تكبل إمكاناته التحليلية والتعليلية. وقد نتج عن هذا المسلك النظري الذي اتبعه المنهج الغربي أن قصد إلى إسقاط المعارف الدينية وعزلها عن النظام المعرفي المعتمد في الممارسة العلمية والمنهجية لمختلف المجالات المعرفية، بما فيها مجال الدراسات التاريخية.

تنأى مفردات المنهج الغربي في تناوله للتاريخ عن مقصد المصدرية المنهجية للقرآن في دراسة التاريخ، لأن سيرورة التطور الذي عرفه الفكر الغربي قد نحت به إلى اختيار الفصل التام بين الحقيقة الدينية والحقيقة العلمية. لا مكان في المنهج الغربي لمصدرية القرآن في نظرية المعرفة لأنه منهج يعتبر أن الدين لا يمكن أن يتأسس على الأسس العقلانية للعلم ولا على مبادئه ومرتكزاته. ومن هذه الزاوية يبقى الدين حبيس مجال الروحانيات، ويكون أقرب إلى الأساطير منه إلى الخطاب العقلاني المستند إلى قواعد قابلة للتحقق منها وربطها الموضوعي بالواقع.

وبدلا من أن يكون الدين عموما، والقرآن خصوصا، مصدرا ضروريا للمنهج في هذا النوع من العلوم الإنسانية فإن المنهج الغربي يعتبر الوحي وكل ما يمت إليه بصلة أيديولوجيا ينبغي التحرر الحتمي منها والتجرد من كل آثارها أثناء الدراسة العلمية للتاريخ البشري. إن التصرف السليم مع الدين حسب المنهج الغربي هو حصره في نطاق ضيق يكرس انحساره. وبذلك يغدو مقصد الضرورة المنهجية لإقصاء الوحي من دراسة التاريخ أحد الكليات المنهجية التي تقوم عليها نظرية المعرفة في الممارسة الغربية. وهي ممارسة تنظر إلى الدين بصفته سبيلا للتسليم والإذعان لا للتفكير والبرهان، وتعتبر السلوك السليم للتعامل معه هو طرده من حيز العلم ورحاب المعرفة ومصادر البحث.

إن النتيجة الحتمية لإقصاء مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن من دراسة التاريخ هي إبعاده عن مجال العلم والمعرفة في البحث التاريخي. ويؤدي هذا الإبعاد إلى التعامل مع التاريخ البشري بصفته مجالا معرفيا محكوما بقوانين ذاتية تسيره من داخله وتجعله قادرا على تصحيح نفسه بنفسه، دون أن يكون لأي جهة أخرى سلطان عليه. كما يفضي هذا الإبعاد إلى اعتبار علمية التاريخ وموضوعيته رهينة بمفارقة الوحي ومصادرة حقه في تصدر مصادر الإطار المرجعي لنظرية المعرفة في الدراسات التاريخية. ووفقا لهذا المنظور الفكري والموقف المنهجي فإن أي تدخل من الدين في مسائل العلم وقضايا المعرفة يعتبر ممارسة أيديولوجية وتدخلا غير مشروع في مجال ينبغي أن يتسم بالحياد.

إن تعطيل مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية الوحي في الدراسات التاريخية وفق الممارسة الفكرية الغربية لم ينطلق من فراغ. فالفكر الغربي لم يخلص إلى هذه النتيجة بخصوص الدين في علاقته بالعلم على نحو اعتباطي. وإنما كانت هذه النتيجة وليدة اصطدامات عنيفة بين الفكر الغربي والتفكير اللاهوتي الذي دافعت عنه الكنيسة. لقد أفضى توغل رجال الدين في الميتافيزيقا العقيمة إلى اتخاذ الكنيسة منحى مناقضا للحقيقة ومسارا معاكسا للواقع. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي وضع العقل والدين على طرفي نقيض.

لقد بدأت الشرارة الأولى لإقصاء الدين من مجال العلم مع الكنيسة حين أقصت العلم من مجال الدين. فقد كان رجال الدين في المجتمع الغربي متفقين على أن الدين والعلم ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان. وكانوا يعتقدون أن كل ممارسة عقلية في معزل عن نصوص الدين هي ممارسة باطلة يحرم الأخذ بنتيجتها. وأدى هذا الموقف المتشدد إلى الاصطدام بحركة النهضة العلمية الناشئة وعرقلة مسيرتها نحو تحقيق تقدمها العلمي المنشود.

لم يكن أمام علماء ذلك العصر من خيار سوى إقصاء الدين من مجال العلم مثلما أقصت الكنيسة العلم من مجال الدين. لقد كان الخيار الوحيد لتحقيق نهضة علمية حقيقية تدفع بعجلة البحث العلمي وحركة التقدم المعرفي نحو الأمام هو الوقوف ضد تعنت الكنيسة وموقفها المتصلب المعادي للعقل. لم يكن هنالك بد من تجفيف منابع سلطة الكنيسة وسيطرتها على العقول من خلال ضرب أسسها المرجعية ومحاصرتها منهجيا لبيان عوارها في المجالين العلمي والمعرفي. ومما مكن من تقويض أركان الكنيسة في هذين المجالين هو عجزها عن تقديم أجوبة عن الأسئلة المستجدة التي يطرحها العقل، في مقابل قدرة العلم ترديجيا على ملئ ذلك الفراغ.

عرفت هذه المرحلة التاريخية الحرجة صراعا بين مقصدين من مقاصد الدراسة والبحث في مجال العلم عموما بما في ذلك التاريخ؛ مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية الوحي في مجال العلم والمعرفة، ومقصد الضرورة المنهجية لإقصاء الوحي من مجال العلم والمعرفة. وفي خضم هذا الصراع وأوجه ظهرت معالم المدرسة الوضعية التي قطعت كل أواصر الصلة مع مراحل المعرفة السابقة المتمثلة في المرحلة اللاهوتية والميتافيزيقية. لقد أصدرت هذه المدرسة حكمها النهائي الذي يجعل المرحلة العلمية التي عاصرتها ناسخة لكل ما قبلها من مراحل، وينصب العلم سلطانا يتربع على الكرسي الذي كان يعتليه الدين. وهكذا صارت العلوم الوضعية هي الملجأ الذي يحتمي به المجتمع الغربي، لأنها زاحمت الدين وحلت محله وقامت مقامه وطردته من مجالي العلم والمعرفة، ثم تقاسمت فيما بينها مجالات الاشتغال التي كانت تحتكرها السلطة الدينية.[3]

تأثرت مقاصد الدراسات العلمية منذ ذلك العهد بالنموذج الغربي للمعرفة نتيجة سيطرة نموذج الحضارة الغربية. فسرى مفهوم هذا النموذج عن الدين إلى كافة الأوساط الثقافية سواء منها تلك التي تنتج المعرفة أو تلك التي تتلقاها. ثم أصبح ذلك المفهوم تصورا سائدا وراسخا لا يطاله الجدال ولا يتناوله النقاش. ومما ساهم في سيطرة التصور الغربي للدين واكتساحه لمنظومة المفاهيم في باقي الحضارات هو الإنجازات المبهرة التي حققتها الحضارة الغربية مباشرة بعد تحررها من سيطرة الكنيسة وهيمنتها على الساحة العلمية.

[3] إن الصراع الذي شنته المدرسة الوضعية لم يكن موجها أول الأمر ضد الإيمان في حد ذاته، بل كان موجها إلى نوع التفكير الديني الذي فرضته الكنيسة الكاثوليكية وبدافع من الرغبة في مقاومة نفوذها– يدل على ذلك أعمال الفلاسفة الذين قاموا في القرنين السابع عشر والتاسع عشر بمحاولات فلسفية للاحتفاظ بقدسية الدين وقيمة الوحي– لكن الذي ينبغي أن ننتبه إليه هو أن هذه المحاولات ستتجاوز حدودها لتصبح نقدا موجها إلى كل تفكير ديني دون تمييز. انظر: محمد الكتاني، *جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي: في الفكر الإسلامي الحديث*، ج2، ط1. (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1421هـ/ 2000م)، ص368-393.

لقد انعكست هذه التصورات التي تحولت إلى قناعات على الموقف من الدين في علاقته بالعلم، نظرا لأن معيار التقدم قد أصبح هو الأخذ بما توصل إليه العلم في آخر مراحل تطوره في الحضارة الغربية بصرف النظر عن الملابسات التي صاحبت ذلك التطور. وما دامت هذه الحضارة الغربية قد نحت نحو فصل الدين عن الحياة العلمية وعزله عن كل ما يرتبط بالعلم والمعرفة، فقد توهم المنبهرون بالإنجازات الغربية أن التاريخ الإنساني الحديث يدين في تقدمه للتحرر التام من الفكر الديني.

امتد تأثير هذا التفكير الذي أقصى المصدرية المنهجية للوحي من مقاصد الدراسات العلمية عموما، والتاريخية خصوصا، إلى العالم الإسلامي. فقد فرضت هذه الأطروحة الغربية نفسها على عقول أفراده ومجتمعاته حتى أصبح العديد منها مقتنعا إلى حد بعيد بأن العلم ينسخ الدين ويمحوه. كما وقعت تلك العقول ضحية الإسقاط المفهومي الذي روج لمفهوم الدين بمعناه المشوه الذي ينطلق من التجربة الغربية مع الكنيسة ثم يتسع ليسيطر على الفكر الإنساني بأكمله، بما فيه فكر الشعوب التي لم تعرف نفس تجربة الصراع بين الدين من جهة وبين العقل والعلم من جهة أخرى.

وإذا كان مقصد الضرورة المنهجية لإقصاء القرآن من المصدرية في مجال الدراسات التاريخية هو النتيجة الحتمية التي تتوافق مع ما آلت إليه نظرية المعرفة من تأثر بالتجربة الغربية في موقفها من العلاقة بين الدين والعلم، فإنه من المؤسف حقا أن تُسقط هذه التجربة على العالم الإسلامي من دون مراعاة لخصوصية حضارته التي لم يعش فيها البحث العلمي ما عاشه في علاقته بالكنيسة في الغرب. ولا يخفى أنه من الخطأ المنهجي أن يتم استمداد مفهوم الدين والرجعية في الفكر الديني من المجال التداولي الغربي وتطبيقها على المجال التداولي العربي الإسلامي. كما أنه من الخطأ استنباط مقاصد دراسة المعرفة التاريخية من التجربة الغربية وفرضها على مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم.[4]

لابد من التسليم المنهجي والاعتراف الموضوعي بأنه لا ينبغي إسقاط مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في الثقافة الغربية على مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في الثقافة الإسلامية. فالصراع بين العلم والوحي الذي عرفته الحضارة الغربية ليس صراعا حتميا في الثقافة الإسلامية. إنه صراع ذو خصوصية تجعله لصيقا بالخبرة التاريخية الغربية. وكل محاولة تهدف إلى خلق هذا الصراع وافتعال حدوثه داخل المجال التداولي العربي الإسلامي هي محاولة تفتقر على المنهج العلمي الرصين، لأنها تنطلق من التقليد المعرفي والمنهجي الأعمى لثقافة ذات أطر مرجعية مختلفة تنتمي إلى مجال تداولي مغاير.

[4] في هذا السياق يقول الأستاذ محمد خروبات: "خطأ هذا القياس يكمن في أن بعض الأفكار العربية التي تتوخى العصرنة والموضة الفكرية قامت على نعت آلي يربط بين المسيحية والإسلام على أساس أنهما معا دين (...) إن المواجهة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي لم تأت إلا من كون الإسلام (دين)، لأن الدين عند الغرب أبان عن انهزامه الصريح والواضح أمام العلم والفكر العلمي." محمد خروبات، *الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري*، ط1. (الدار البيضاء: مطبعة إيباج، 1418هـ/ 1998م)، ص186.

تستدعي مفارقة خصوصية الثقافة الإسلامية للثقافة الغربية رد الاعتبار لمقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ وإرجاعه إلى مكانته من نظرية المعرفة الإنسانية عموما والإسلامية على وجه الخصوص. فالقرآن الكريم لا يصطدم مع العلم لأنه حين يتناول قضاياه فهو لا يمارس الأيديولوجيا. إنه لا يقدم إجابات خاطئة تناقض حقائق العلم، ثم يفرض عليه أن يكيف نتائج أبحاثه لتوافقها. وإنما يقدم القرآن للعلم إطارا يحدد له المسار السليم ثم يفتح له المجال للتطور في رحاب ذلك المسار.

ومن خصوصيات الحضارة العربية الإسلامية في تعاملها المنهجي مع القرآن الكريم أنها تضعه في مقام المصدر المرجعي الشامل للمعرفة. فهو الذي يحدد معالم التفكير العلمي السليم وثوابته، ويحتوي متغيرات الحياة الإنسانية بكل تفاصيلها بما في ذلك جانبها العلمي، ويسمح بنموها وتطورها الهادف الذي ينسجم مع إرادة الله في التكوين والتشريع. إن القرآن مؤهل للمصدرية المنهجية في الدراسة العلمية – في مجال التاريخ وغيره – لأنه يحدد موقع الإنسان من الكون بدقة، ولا يحجر على عقله بقدر ما ييسر له سبل المعرفة ويمكنه من الاستدلال العلمي عليها. كما أنه يصحح للإنسان معارفه ويرتقي بها ليحقق له السمو إلى مقام الاستخلاف الذي جعل لأجله.

1. 2. المستوى التطبيقي للضرورة المنهجية:

لقد امتد الخلل المنهجي الذي عرفه المستوى النظري إلى مجال التطبيق فأثر سلبا على المعرفة التاريخية التي يتم إنتاجها. ونظرا لغياب مقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في مجال التاريخ بسبب هيمنة الإطار النظري الذي فرضته الحضارة الغربية على الدراسات الإنسانية، فقد تأثرت التفسيرات التي يقدمها الإنتاج المعرفي لتلك الدراسات عن الظاهرة التاريخية.

لقد أدت هيمنة الإطار النظري الغربي، والمقاصد التي وضعها للدراسة التاريخية وفق موقفه من التعامل مع الوحي وعلاقته بالعلم، إلى ظهور ثلاث اتجاهات في فهم التاريخ وتفسيره. ومهما اختلفت هذه الاتجاهات عن بعضها من حيث تغليب بعض العناصر على بعضها الآخر، غير أنها تلتقي في تغييب عنصر الوحي وعدم الاعتراف بحضور العناية الإلهية في صناعة التاريخ وبناء الإنسان. وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يلي:

– الاتجاه الأول: يرى هذا الاتجاه استحالة فهم وتفسير الظاهرة التاريخية استنادا إلى قانون السببية. ويستند في هذا الموقف إلى أن العلة والحتمية لا تحضر بقوة ووضوح في التاريخ بنفس قوة حضورها ووضوحه في العلوم المحضة كالرياضيات والفيزياء. ويعزو هذا الاتجاه ضعف قانون السببية وتقلص دائرة عمله في مجال الدراسات الإنسانية بشكل عام والتاريخية بشكل خاص إلى قوة حضور إرادة الإنسان وتحكمها المباشر في الظاهرة الإنسانية. فالاعتراف بحرية الإنسان، وبقدرته على اتخاذ القرار، وبامتلاكه لخيار الاختيار، ينعكس سلبا على قوة الحتمية ومدى إمكان تعميم نتائج قانون السببية في مجال التاريخ. ومن هذا المنظور تصبح

الظاهرة التاريخية ظاهرة متميزة ومتفردة الوجود بحيث لا يمكن أن تعاد أو تتكرر بمجرد حصول نفس الحيثيات والملابسات والظروف التي تسببت في حدوثها أول مرة.[5]

يغدو الحديث عن سنن تاريخية ترصف أحداث الماضي وتمكن من التنبؤ بأحداث المستقبل أمرا محال التحقيق من منظور هذا الاتجاه. ومهما أمكنت البرهنة على خضوع بعض أحداث التاريخ للحتمية السببية، فإن هذا الاتجاه يعتقد أن ذلك ينطبق فقط على بعض الدورات التاريخية الخاصة، ولا يمكن بحال من الأحوال تعميم نتائج تلك الحتمية السببية على باقي دورات التاريخ. ودليله على ذلك هو الاختلاف الحاصل بين الظاهرة الطبيعية التي تخضع لقانون السببية وبين الظاهرة التاريخية التي لا يمكن أن تخضع لها. فالظاهرة الطبيعية تقبل الخضوع لقانون السببية لأنها فاقدة للإرادة الحرة والشعور الإدراكي والوعي اتجاه الماضي والعناصر الأخرى، بعكس الظاهرة التاريخية التي ترتبط بالإنسان المتمتع بالوعي والإدراك والشعور والإرادة الحرة. وتمتع الإنسان بهذه الخصائص يعني قدرته على التعرف على نهاية الدورة التاريخية انطلاقا من بدايتها إذا كانت قد سبقتها دورة مشابهة. وبذلك لا يمكن أن تتكرر الدورة السابقة إلا في القليل النادر، خاصة مع التعقيدات التي تصاحب حضور الإنسان وفعله في حركة التاريخ.[6]

– الاتجاه الثاني: يغلب هذا الاتجاه حضور قانون السببية على نحو ينتفي فيه فعل الإرادة الإنسانية. وينطلق في ذلك من تفسير الظواهر التاريخية استنادا إلى نفس منطلقات تفسير المختصين للقضايا الفيزيائية والميكانيكية. فالحتمية وقانون السببية يحكمان مختلف الظواهر التي تنتمي إلى هذه الحقول المعرفية بنفس الدرجة من القوة ونفس المستوى من الوضوح. ويعني ذلك أن هذا الاتجاه يعتبر حركة التاريخ حركة آلية مطردة، تقبل الانتظام في متواليات من الأحداث يحكمها قانون السببية بشكل مطلق، ولا مجال فيها لعنصر الإرادة الإنسانية التي تتمتع بحرية الاختيار. ومن ثم تصبح حركة الإنسان داخل التاريخ محكومة بحتمية قانون السببية الذي يعطل قدرة الإنسان على استخدام إرادته الحرة أو التحكم في مجريات التاريخ.[7]

دفعت هذه الحتمية التاريخية بأصحاب هذا الاتجاه إلى القول بإمكان التنبؤ بالمستقبل واستبصار حركة التاريخ واستشراف مسار الحضارة. فالظاهرة البشرية بالنسبة لهؤلاء لا تعدو أن تكون جزءا لا يتجزأ من الطبيعة مهما كانت ضاربة في القدم ومهما بلغت من درجات التعقيد. والنظر إلى الظاهرة البشرية من هذه الزاوية التي تعتبرها جزءا من الطبيعة يقتضي أن يتم إخضاعها لنفس الأسس والقوانين والأصول التي تخضع

[5] وممن ذهب إلى ذلك كارل بوبر. راجع في ذلك:

Claude Mouchot, Introduction Aux Sciences Sociales Et A Leurs Méthodes. 1ère ed. Collection transmission de la connaissance, les editions Toubkal, presses Universitaires de Lyon, (1986) : 94-97.

[6] هذا القول ذهب إليه إدوارد هالت كار في تعليق له على نظريتي توينبي واشبنكلر. انظر المرجع السابق.

[7] ومن رواد هذه النظرية من الغرب مونتسكيو وإشبنكلر وتوينبي. أنظر المرجع السابق.

لها "الأشياء" بصفتها الموضوع الذي تدرسه العلوم الطبيعية.[8] والذي يظهر من خلال مواقف هذا الاتجاه هو أنه ينتقص من قيمة إرادة الإنسان الحرة، كما أنه يلغي دوره الاختياري في الفعل في التاريخ وصناعته.

– الاتجاه الثالث: يسلم هذا الاتجاه بالحاكمية المزدوجة لإرادة الإنسان وقانون السببية في حركة التاريخ. ويعتبر هذا الاتجاه أن حرية الاختيار والحتمية السببية لا يتعارضان، بل إنهما عنصران فاعلان معا في سيرورة الظاهرة التاريخية بحيث لا يقلل أحدهما من قيمة وفاعلية الآخر. ويمكن القول إن هذا الاتجاه ينحو نحو القول بازدواجية العامل المحرك للتاريخ؛ فهو يرى أن الظاهرة التاريخية تقوم على دعامتين تتكاملان دون تعارض. تتمثل الدعامة الأولى في العنصر البشري الذي يسهم في بناء التاريخ انطلاقا من إرادته الحرة وقدرته على الاختيار واتخاذ القرار، وتتمثل الدعامة الثانية في قانون الحتمية السببية الذي يمكن من التنبؤ بأحداث المستقبل والإسقاط التعميمي لدروس الماضي على أحداث الحاضر.

إن القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات هو وقوعها في خطأ منهجي جسيم يضعها في مقام أقل من المستوى المثالي المطلوب منهجيا ومعرفيا في دراسة التاريخ وتفسير ظواهره. ويتمثل هذا الخطأ المنهجي في أن هذه الاتجاهات تلتقي جميعها في تقييم الظاهرة التاريخية على أساس بعض العوامل دون بعضها الآخر. وتتمثل العوامل التي تخضع لها عملية تقييم حركة التاريخ لدى هؤلاء في معيارين اثنين هما قانون السببية والإرادة الإنسانية. فالاتجاهات المذكورة لا تخرج عن كونها تفسر حركة التاريخ بأحد هاذين العاملين أو كليهما، دون استحضار عامل معياري ثالث له الفضل الأكبر في تسيير حركة التاريخ وتوجيه دفته، وهو عنصر المشيئة الإلهية التي ترعى الإنسان وحركة التاريخ.

مهما اختلف المعياران أو العاملان اللذان تستند إليهما الاتجاهات السابقة في دراسة التاريخ، والمتمثلان في قانون السببية والإرادة الإنسانية، فإنهما يلتقيان معا في الانتماء إلى حقل أو مجال معرفي واحد، وهو مجال ما هو مادي ومحسوس. ولا يخفى أن تركيز هذه الاتجاهات على هذين المعيارين فقط دليل واضح على أنها تنطلق من نظرة أحادية ضيقة تنحصر في التأثر بالفكر الغربي في تغليبه للوضعية المادية التي تقصر عن استيعاب كافة الحيثيات المحيطة بالظاهرة التاريخية قيد الدراسة، وتعجز من ثم عن تقديم تفسير كامل للملابسات المرتبطة بها.

إن المأزق المنهجي الذي وقعت فيه هذه الاتجاهات، نتيجة إغفالها لمقصد الضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ، يوقع أصحابها في نوع من السذاجة الإبستمولوجية التي تعطي تفسيرا لما حولها من منظور واحد وفي ضوء علوم معينة، دون أن يتسع أفقها لتقديم تفسير كامل لما تتناوله من قضايا ومواضيع. ولا شك في أن النظرة المتكاملة للظواهر التاريخية، والتي تعالج موضوع الدراسة من جانبها المادي المحسوس وجانبها المغيب عنا، لا يمكن أن تتحقق ما لم يتم تفعيل مصدرية القرآن الكريم بالنسبة للدراسة التاريخية، بحيث نستفيد من المعرفة التاريخية المبثوثة في القرآن الكريم، ومن منهج القرآن الكريم في تناول القضايا التاريخية ومباحثتها.

[8] يعد إميل دوركهايم من أبرز من ذهب إلى الحتمية التاريخية في حركة التاريخ وآمن بحاكمية المجتمع الحتمية على حياة الفرد وعدم قدرة الفرد على الانفلات من سلطان المجتمع.

وإذا كانت مناقشة المقصد الأول قد قادتنا إلى التسليم والاعتراف بالضرورة المنهجية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ، فإننا نجد أنفسنا بإزاء بعض التساؤلات المرتبطة بالكفاية المعرفة لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ، والتي يمكن تجميعها في السؤال التالي:

– إلى أي حد يمكن لمعارف الوحي أن تمد المشتغلين في مجال الدراسات التاريخية بمعطيات توفر عليهم الكثير من العناء وتحميهم من الوقوع في العديد من المزالق التي مردها إلى طبيعة سعة الماضي، وطبيعة تعقيد الظاهرة الإنسانية من جهة، وإلى طبيعة المنهج الذي تعتمده هذه الدراسات من جهة أخرى؟

2. المقصد الثاني: الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ:

يتمثل المقصد الثاني للدراسة التاريخية في الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن؛ وهو مقصد يهدف إلى استخراج المعرفة التاريخية التي يتضمنها القرآن الكريم واستشفاف ما يحويه أو يرمز إليه من معارف تاريخية، وبلورة إطار منهجي يمكن من استكناه مقومات هذه المعارف والوقوف على دعائمها. ويتيح هذا المقصد أيضا معرفة التصور القرآني لمفردات السيرورة التاريخية، ويمكن من استخراج الضوابط المنهجية والمنطلقات الفكرية التي سطرها القرآن للمعرفة التاريخية. ومن شأن هذه الأهداف التي يحقق مخرجاتها هذا المقصد أن تكون معينا ومثبتا للدارس وهاديا أمينا له يرشد طريقه في قراءة التاريخ وتحصيل المعرفة التاريخية ودراستها دراسة علمية حقة. وتعتبر هذه الخطوات التأسيسية هي السبيل الأمثل نحو أجرأة المصدرية المعرفية للوحي في الدراسات التاريخية.

ويسند هذه الرؤية المقاصدية للمعرفة التاريخية في القرآن الكريم أن القرآن قد تضمن آيات عديدة تمكن من استخراج معرفة من هذا النوع تتمتع بالمصداقية العلمية والدقة المنهجية. فالذي "يقرأ كتاب الله الكريم بتمعن، (...) يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات ممتدة وفق أبعاد أربعة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، (...) ويدعو رابعها لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم."[9]

إن مما يشهد لمقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في الدراسات التاريخية هو أن القرآن الكريم قد تناول في آياته الكريمة أبعادا متعددة ومتنوعة تتصل بمفهوم التاريخ وبالدراسات التاريخية التي تنخرط في حقله، ويمكن أن نقوم بتصنيف هذه الأبعاد المتعددة والمتنوعة على النحو التالي:

[9] عماد الدين خليل، *مدخل إلى إسلامية المعرفة مع مخطط مقترح لإسلامية علم التاريخ*، ط3. (الرباط: مكتبة ومطبعة الأمنية، 1412هـ/1992م)، ص27.

2. 1. التأصيل لمفهوم التاريخ:

تغطي آيات القرآن الكريم مجال التأصيل لمفهوم التاريخ، حيث إن المتمعن الذي يدقق النظر في الآيات القرآنية يلاحظ لا محالة أن القرآن منذ بداية نزوله قد كان يؤصل لمفهوم التاريخ بشكل عميق في ذهن الإنسان المسلم. فكتاب الله تعالى ينمي وعي المسلم بمرجعية التاريخ ومكانته المحورية من خلال توجيه الفكر الإنساني نحو التقاط الحوادث ودراستها بوصفها عبرا. وتعتبر هذه الرؤية القرآنية أعظم تجديد فكري من زاوية النظر إلى التاريخ وما يدور في الزمن.

يقوم القرآن إذن بتعميق شعور الإنسان المسلم بوظيفة التاريخ وهدفه. ويتحقق ذلك من خلال عدد كبير من الآيات كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[10]. وغيرها من الآيات كثير، وكلها تؤكد حقيقة تأصيل القرآن لمفهوم التاريخ في وجدان المسلمين. فالقرآن الكريم قد طلب من المؤمنين أن يسيروا في الأرض حتى يتدبروا ويقلبوا أوجه النظر بإمعان في صفحات الأمم السابقة، عسى أن يفيدهم ذلك في التعلم من تجارهم وقصصهم وأخبارهم حتى يميزوا بين الخطأ والصواب، وحتى يتعرفوا على الأسباب التي رفعت أو حطت من شأنهم.

ويظهر هذا البعد التأصيلي لمفهوم التاريخ من خلال تأكيد المعرفة التاريخية المبثوثة في القرآن الكريم على التذكير بأيام الله. والمقصود بأيام الله هو وقائع الله في الأمم السالفة كما بين ذلك القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.[11] ويعتبر التذكير بأيام الله وسيلة من وسائل تسخير التاريخ لخدمة الرسالة السماوية والدفع بحركتها، ومن ثم التأصيل لمرجعية التاريخ في الفكر الإسلامي. ويخدم التذكير بأيام الله هذه الأهداف لأنه نوع من العودة الواعية والرجوع المدرك والارتداد البصير إلى الماضي. ويضمن التذكير بقاء صور تلك الأيام شاخصة في الذاكرة الجماعية للأجيال اللاحقة وراسخة بعمق في وجدانها على نحو يجعل وعيها ويقظتها في حراك مستمر.

2. 2. تغطية حاجات التاريخ النقلي:

إن مما يؤكد وجود مقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ هو احتواء كتاب الله تعالى على حقائق حصرية وتفرده بها. وهي حقائق تاريخية بالغة الأهمية تلمس مختلف المراحل التي قطعها تاريخ البشر. ومن بين هذه الحقائق نذكر ما يلي:

أ. بداية تاريخ الجنس البشري:

يكشف القرآن الكريم حجب الغيب عن البداية الحقيقية لتاريخ الجنس البشري. ويعود القرآن الكريم بهذه البداية إلى زمن خلق آدم عليه السلام. وبذلك يكون القرآن قد رسم لبداية تاريخ البشرية مسارا مختلفا وصورة

---

[10] سورة آل عمران، الآية 137– 138.

[11] سورة إبراهيم الآية 5. راجع: مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني. ج9، ط2. (القاهرة: دار الشعب، 1372هـ)، ص224.

معاكسة عما رسمه الفكر الغربي من منطلق الخيال الأسطوري ثم نشره وألزم به باسم العلم. فقد تقرر في أدبيات الفكر الغربي أن الإنسان الأول قد كان إنسانا بدائيا تنعدم فيه شروط التحضر الأساسية، وأنه قد تطور عن كائنات أخرى سابقة له في الوجود.

لقد قدم لنا القرآن الكريم حقائق غيبية عن بداية الخلق من خلال نصوص قطعية الثبوت والدلالة تفيد بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم عليه السلام خلقا مستقلا. ويعني ذلك أن الإنسان لم يتطور عن كائنات أخرى سبقت وجوده. ويدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[12].

أضف إلى ذلك أن الإنسان الذي خلقه الله تعالى لم يكن بدائيا في أول خلقه، وإنما كان مزودا منذ البداية بما يمكنه من التلقي والإدراك الواعي والحركة الإرادية. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك في مواطن عديدة ومواضع مختلفة، من بينها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[13] وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[14]. كما أشار القرآن الكريم –خلافا لما ذهب إليه التطوريون– "إلى أدوات الإدراك وإلى تمامها وكمالها ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[15] كما نبه إلى أن هذه الأجهزة ذات كفاءة عالية في أداء عملها، وأن أي قصور فيها لا يرجع إلى عجزها في أصل الخليقة، وإنما يرجع إلى سوء استخدامها. ولذا حمل الله الإنسان مسؤولية صيانة هذه الأجهزة والمحافظة على حسن أدائها، وعد سوء الاستعمال ذنبا يعاقب الإنسان عليه. قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[16]."[17]

ب. أوضاع الأمم والأقوام السابقة:

لقد تحدث القرآن الكريم بتفصيل عن أوضاع الكثير من الأمم والأقوام السابقة. وقد تميزت المعلومات التي قدمها القرآن في هذا الشأن بخصائص عديدة، من بينها أنها معلومات تتسم بالدقة والشمول والاستيعاب في الآن نفسه. ويمكن أن نقوم بتصنيف أوضاع الأمم والأقوام السابقة التي تعرض لها القرآن الكريم من خلال التمييز بين نموذجين رئيسين من الفعل والسلوك الإنساني:

– نموذج يشكل المثال الصالح، وهو الفئة التي تتوخى الإصلاح وتدعو إلى الإيمان بالله سبحانه تعالى وتدفع بحركة التاريخ ومسيرة الإنسانية إلى الأمام. ويأتي في طليعة هذا النموذج كل من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين.

– نموذج يشكل المثال الطالح، وهو الفئة التي تسلك طريق الانحراف والضلال، وتعرقل حركة التاريخ ومسيرة الإنسانية، وتجرها إلى الخلف. ومن أمثلة هذا النموذج قابيل والنمرود وفرعون وهامان وقارون.

---

[12] سورة ص، الآية 71– 72.

[13] سورة البقرة، الآية 31.

[14] سورة التين، الآية4.

[15] سورة النحل، الآية 78.

[16] سورة الإسراء، الآية 36.

[17] محمد رشاد خليل، *المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره*، ط1. (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1406هـ/1986م)، ص94–95.

ج. حركة النبوات والرسالات السابقة:

لقد أرخ القرآن الكريم لحركة النبوات والرسالات السماوية السابقة ووثق للعديد من جوانبها بدقة. ومن جوانب ذلك التوثيق على سبيل المثال أن القرآن الكريم قد ذكر لنا ما كان يقف في طريق الأنبياء والرسل من أساليب الأذى التي يقابلونها بالصبر والثبات إلى أن يمدهم الله سبحانه وتعالى بنصر وتأييد من عنده. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.[18]

كما أبرز لنا القرآن الكريم مدى سعي تلك الرسالات والنبوات إلى تحقيق مفهوم العبادة وترسيخه في الوجدان والسلوك الإنساني من أجل تخليص البشرية من تبعات ما عصف بها من فساد أدى إلى سقوطها ودمارها. وفيما يلي نماذج مما ذكره القرآن الكريم بهذا الشأن:

– سعى نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى تخليص قومه من الانحراف والفساد العقدي. ويدل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[19]

– بُعث نبي الله لوط عليه السلام من أجل تخليص قومه من الفساد الأخلاقي الاجتماعي. ويدل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[20]

– أراد نبي الله شعيب عليه السلام تخليص قومه من الفساد الاقتصادي. ويدل على ذلك قول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[21]

– أرسل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام من أجل تخليص بني إسرائيل من ذل الاستضعاف الذي عاشوه تحت طغيان فرعون مصر. ويدل على ذلك قول الله تعالى في خطابه إلى موسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.[22]

---

[18] سورة الصافات، الآيات 171– 173.

[19] سورة العنكبوت، الآية 16– 17.

[20] سورة العنكبوت الآية 28– 29.

[21] سورة الأعراف، الآية 85.

[22] سورة طه، الآيات 43– 47.

د. تاريخ العرب قبل الإسلام:

يقدم لنا القرآن الكريم معرفة صحيحة ترقى إلى مستوى الحقائق اليقينية القطعية التي تتعلق ببعض الجوانب من تاريخ العرب وحياتهم قبل الإسلام. ومعلوم أن هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية قد عرفت الكثير من المحاولات المغرضة التي تهدف إلى تشويه الحقائق وطمس المعالم من أجل الطعن في حاملي الإسلام ورسالته. فقد ظهرت تلك المحاولات المغرضة منذ مرحلة مبكرة مع اليهود والشعوبيين.[23] أما دين الإسلام فقد حفظ لنا من تاريخ هذه الفترة المهمة كل ما هو ضروري وأساسي لفهم الإسلام والوقوف على تاريخه والتعرف على الظروف والحيثيات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية والدينية التي تعامل معها إبان ظهوره.

هـ. الدعوة الإسلامية في عهد النبوة:

لقد تحدث القرآن الكريم عن الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ مثلما تحدث عن الدعوة في الرسالات السابقة. غير أن القرآن الكريم قد خص هذه الدعوة بحديث أطول نظرا لما لهذه المرحلة التاريخية من أهمية بالنسبة لدين الإسلام ورسالته. ويضاف إلى ذلك أن هذه الفترة من تاريخ البشرية قد استوعبت كل العناصر الأساسية والسنن والقوانين المؤثرة في حركة التاريخ. لقد عرض القرآن الكريم لتاريخ هذه المرحلة "بشكل مثل فيه (تأريخ حياة) لا (تأريخ مرحلة) فصوره تأريخا حركيا (...) يحمل بين جوانحه منهجا متكاملا يمثل القدوة في البناء والتغيير الحضاري للبشرية كلها."[24]

و. الأحداث المستقبلية:

لم يقف حديث القرآن واستيعابه لمراحل التاريخ عند تغطية المحطات التاريخية آنفة الذكر، وإنما أعطى القرآن للتاريخ وظيفة استشرافية وبعدا مستقبليا من خلال تزويدنا بمعلومات صادقة ويقينية عن فترات من تاريخنا لم تكن قد تحققت بعد في عهد النبوة كما هو الحال في قول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.[25] وإذا كانت قصة الروم تمثل حدثا استشرافيا على المدى القريب، فإن القرآن الكريم قد وصف أحداثا مستقبلية أخرى على المدى البعيد بعضها لم يتحقق إلى الآن وبعضها الآخر لن يتحقق في الحياة الدنيا؛ ومن ذلك حديث القرآن الكريم عن الآخرة والجزاء يوم القيامة وما يرتبط بذلك من قضايا المصير النهائي للبشرية.

---

[23] أنظر مثلا: أحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تحقيق مُحَمَّد سعيد العريان، ج3، ط2. (القاهرة: المكتبة التجارية، 1372هـ/1953م)، ص319.

[24] عامر الكفيشي، *حركة التاريخ في القرآن الكريم*، ط1. (بيروت: دار الهادي، 1424هـ/2003م)، ص153.

[25] سورة الروم، الآيات 1-5.

2. 3. بيان السنن التاريخية:

تعتبر السنن التاريخية المبثوثة في القرآن الكريم من أبرز المجالات التي يظهر فيها مقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ. فالمتأمل في المعرفة السننية التي ينطوي عليها القرآن الكريم يلحظ لا محالة أنه كتاب يتضمن نواميس مطردة تحكم حركة التاريخ، وتمكن من التنبؤ بالمستقبل واستشراف مسار الحضارة والاعتبار بدروس الماضي. فالقرآن الكريم يتضمن آيات عديدة تسعفنا في استخراج الكثير من السنن والقضايا الكلية والأحكام العامة التي تسري مسرى القانون وتجري مجراه، والتي يمكن أن نعدها بمنزلة النواميس الاجتماعية الثابتة التي تحكم على الظاهرة التاريخية. وفيما يلي بعض مظان استخراج السنن والنواميس التي تحكم التاريخ في القرآن الكريم:

أ. الآيات التي تتحدث عن أحوال الأمة في طرفي نقيضها؛ طرف النهوض والتقدم والازدهار وما يصاحبه من تغيير ثقافي وإصلاح فكري واجتماعي، وطرف التدهور والانهيار وما يصاحبه من فساد أخلاقي وتبلد عقلي وتقليد أعمى. ويمكن استثمار هذه المجموعة من الآيات في استنباط السنن التي تخول لنا التعرف على الأصول التي تقوم على أساسها الجماعات، ومعرفة عوامل الوصل التي تؤلف بينها وتقوي عرى وجودها وأواصر ترابطها، وكذا عوامل الفصل التي تحل أواصرها وتضعف لحمة ارتباطها وتفصم عرى ألفتها. وتعتبر الآيات التي تتناول هذه المواضيع بمثابة المرجع السنني الفاعل في التاريخ، والمؤطر لدورة تَعاقب المجتمعات البشرية، والحاكم على حركة الحضارات قياما وسقوطا وتجددا واستبدالا.

ب. الآيات التي تناولت مسائل عقدية وربطتها بنتائجها ربطا سننيا. وتعتبر هذه الآيات مرجعا حاكما يزود المؤمنين بالآليات العقدية التي تخول لهم جلب المصالح ودرء المفاسد على مستوى الظواهر الكونية والاجتماعية التي تؤطر حياة البشر. وتنقسم النتائج المترتبة على المقدمات العقدية إلى نتائج مادية تؤثر في الظواهر الكونية، ونتائج اجتماعية تؤثر في الظواهر الإنسانية.

أما النوع الأول فمن أمثلته تقرير القرآن بأن التوبة والإستغفار مقدمة وسبب لنزول الغيث. فقد جاء على لسان نبي الله هود عليه السلام قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.[26] ومن أمثلة هذا النوع الأول أيضا تقرير القرآن بأن الإيمان الفاعل الملتزم مقدمة لبركات السماء. فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[27] ومن شأن استخراج هذا الجانب السنني من آيات العقيدة أن يمدنا بقوانين نستطيع من خلالها فهم الظواهر الكونية من حولنا وتطويعها بعلم يمكن من الفعل فيها بوعي والتفاعل معها بحكمة.

---

[26] سورة هود، الآية 52.

[27] سورة الأعراف، الآية 96.

وأما النوع الثاني فمن أمثلته تقرير القرآن بأن التوبة والإستغفار مقدمة للتقدم والازدهار والرخاء الاجتماعي والحياة الطيبة. فقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.[28] ومن أمثلة هذا النوع الثاني أيضا جعل القرآن الكريم كفرَ النعمة سببا في فقدان الأمن الاجتماعي. فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[29]. ومن شأن استخراج هذا الجانب السنني من آيات العقيدة أن يمدنا بقوانين نستطيع من خلالها رسم معالم التطور الاجتماعي للحضارات السابقة، خاصة أن العقيدة الدينية قد رافقت تركيب الحضارة منذ بداية ظهورها.[30]

2. 4. خصوصيات التاريخ في القرآن:

يضرب مقصد الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن بجذوره في الدراسات التاريخية من خلال خصوصيات تثبت عمق المعرفة التاريخية التي يتضمنها القرآن الكريم. ومن بين هذه الخصوصيات التي امتاز بها القرآن الكريم ما يلي:

– أتى القرآن الكريم بمعطيات أساسية ومبادئ جوهرية تضفي على حركة التاريخ أبعادا غير مسبوقة تعتبر بمنزلة المقدمات الممهدة لإنضاج نظريات عميقة في ميدان إبستيمولوجيا وفلسفة التاريخ. ولعل من أبرز هذه المعطيات والمبادئ والأبعاد أمران مهمان هما أن القرآن الكريم يعتبر الفعل الإلهي عاملا من العوامل البارزة في صناعة التاريخ. ويتمثل الأمر الثاني في النظر إلى حركة التاريخ البشري كوحدة واحدة متكاملة، تنصهر في بوتقتها العلل الجزئية على نحو يمكن من الوقوف على علة عامة أو أكثر تفسر حوادث التاريخ الإنساني برمته.

– أصبغ القرآن الكريم لباس التربية على حركة التاريخ الإنساني حيث أعطى وظيفة تربوية لمجريات أحداثه. ويكتسي التاريخ هذا الطابع التربوي من خلال ما رصده القرآن الكريم من تجارب البشر وما حققوه خلالها من إنجازات وإخفاقات، ثم سخر تلك التجارب المرصودة لخدمة المقاصد الأخلاقية التربوية التي أتى الإسلام من أجل بناء العمران البشري على أساسها. ومن نماذج ذلك أن القرآن الكريم قد ساق الكثير من الوقائع لتحقيق مقصد الاتعاظ[31] والعبرة[32] والتفكر[33]، ونبه على المغزى الكامن وراءها لتحقيق الاستفادة منه في المستقبل.

---

[28] سورة هود، من الآية 3، وراجع: سيد قطب، *في ظلال القرآن*، المجلد الرابع، ج12، ط17. (بيروت– القاهرة: دار الشروق، 1412هـ)، ص1854.

[29] سورة النحل، الآية 112. والأمثلة غير هذه كثير، منها مثلا ربطه تعالى بين الإيمان والصبر وبين تجاوز المحن في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ سورة البقرة، الآية 155.

[30] نذكر من المؤلفات التي اهتمت بهذا الجانب: محمد هيشور، *سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها*، ط1. (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ/ 1996م).

[31] ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة هود، الآية 120.

[32] يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ سورة يوسف، الآية 111.

[33] يقول الله عز وجل: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية 176.

– أضفى القرآن الكريم على حركة التاريخ بعدا حضاريا من خلال تقديم التاريخ من زاوية نظر مختلفة تخرجه من إطاره الضيق المحدود والمنحصر إلى إطار أوسع وأرحب. لقد نظر القرآن الكريم إلى التاريخ بنظرة شمولية عالمية لا تقف عند الأحداث الجزئية والوقائع التفصيلية، وإنما تتجاوزها لتفرغ على عملية التأريخ صبغة النواميس السننية ذات الطابع المعياري الذي يمكن من خلاله تقييم وتقويم تاريخ كافة المجتمعات والحضارات.

– أتى القرآن الكريم بتفييئ جديد لحقب الحياة البشرية بحسب موقعها من الإيمان قربا وبعدا وبحسب ما تقلبت فيه من أحوال اعتقادية إسلاما وإيمانا وإحسانا أو كفرا وشركا ونفاقا. ومن الآيات التي تصور هذا التحقيب الجديد وفق المعيار العقدي قول الله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.[34] وواضح من خلال هذه الآية ونظائرها أن "البداية الأولى للاجتماع الإنساني بدأت من العلم والتوحيد. (...) فالهمجية والوثنية في تفسير القرآن حالات تعرض للبشر نتيجة للبعد عن مصادر العلم الصحيحة (...) بسلطان الله على الأشياء والناس، لأن الإنسان إذا جهل ذلك نسب السلطان إلى الأشياء أو الناس فعبدها. ولما كان الله يعلم بهذه العلل في الإنسان اقتضت رحمته أن يعين الإنسان على نفسه بالرسالات التي تذكره بعهد الله وضرورة قيام الاجتماع على أساسه."[35]

– اتصفت المعلومات والحقائق التي قدمها لنا القرآن الكريم عن الحركة التاريخية بمصداقية مطلقة مستقاة من مصدرها الإلهي الذي ضمن لها قيمتها المعرفية. وقد اتسمت المعرفة التاريخية في القرآن بهذه المصداقية تبعا للمنهج القرآني الصارم في التعامل مع الحدث التاريخي. ونذكر من معالم هذا المنهج عنصرين اثنين؛ أولهما دعوة القرآن الكريم إلى التحري والتحقق والتثبت من الأخبار والروايات وتوثيقها من خلال وضعه لقاعدة أساسية يستفاد منها في النقد التاريخي، وهي التي نبه إليها قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾،.[36] أما العنصر الثاني فهو مباشرة القرآن الكريم لعملية التحري والتحقق والتثبت في نقل الأخبار التاريخية وتوثيقها وفق ممارسة نقدية تتمحص في ضوئها الأخبار، وتنتفي معها عن المعرفة التاريخية في القرآن صفات التفكير الأسطوري[37] وأساليب التحريف التي مارسها أصحاب الكتب في تشويه حقائق الماضي.[38]

---

[34] سورة البقرة 213.

[35] رشاد خليل، *المنهج الإسلامي*، ص96-97 بتصرف.

[36] سورة الحجرات، الآية 6.

[37] يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سورة الفرقان، الآيتان 5- 6.

[38] يقول الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ سورة البقرة، الآية 79.

ز. الخاتمة

أسهمت هذه الدراسة في إرساء محددين مقاصديين لدراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم؛ حيث تمثل المحدد الأول في إثبات الضرورة والحاجة المنهجية لمصدرية القرآن في الدراسات التاريخية سواء على المستوى النظري المتمثل في نظرية المعرفة، أو المستوى التطبيقي المتمثل في اتجاهات فهم التاريخ وتفسيره. أما المحدد الثاني فقد عني بإثبات الكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ، وذلك من خلال إبراز الخصوصيات التي يضفيها القرآن الكريم على الدراسات التاريخية والكشف عن بعض مجالات المعرفة التاريخية فيه، كالتأصيل لمفهوم التاريخ، وتغطية حاجات التاريخ النقلي، وإرساء دعائم السنن التاريخية التي تحكم سير المجتمع البشري.

أثبتت هذه الدراسة مشروعية وأهمية هذين المقصدين –مقصدي الضرورة المنهجية والكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ– بالاستناد إلى دعائم راسخة من القيمة المعرفية والدقة المنهجية التي تتمتع بها المعرفة التاريخية المبثوثة في القرآن الكريم. فقد جمعت الآيات التي تناولت مجال التاريخ بين الأمر بالبحث في مجال محدد، والإرشاد إلى سننه الضابطة، وتقديم تصنيف بشأنه. ويعني ذلك أن المعرفة التاريخية في القرآن الكريم قائمة على مستوى فائق من الدقة المنهجية والوزن المعرفي الذي يؤكد مشروعية اعتماد المقصدين الآنفين من بين مقاصد الدراسة التاريخية وركائزها. ومن أبرز ما تضمنه القرآن الكريم في هذا المجال:

– الأمر بالتفكر في أحوال السابقين والحث عليه. والأمثلة كثيرة في هذا الباب، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾،[39] وقوله أيضا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾،[40] وكذا سائر ما ورد من آيات عن مجتمعات الأنبياء عليهم السلام. وفي ذلك تعزيز للجانبين المنهجي والمعرفي من مقاصد الدراسة التاريخية في القرآن. أما من حيث المعرفة فقد شجع القرآن على الفضول المعرفي في مجال التاريخ، وأما من حيث المنهج فقد حدد القرآن مجال البحث التاريخي وحفز على طرح سؤال الكيف فيه.

– الحديث عن السنن التاريخية، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾،[41] وقوله أيضا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.[42] ويكرس هذا الباب أيضا أهمية المقاصد المعرفية والمنهجية لدراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم يقدم السنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تفسر الظاهرة التاريخية وتحكم حركتها. مما يعني أنه يؤسس للقواعد المنهجية التي تضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل في نظيره الأول، ويقدم أمثلة معرفية على اطرادها.

---

[39] سورة الأنعام الآية 11.

[40] سورة هود، الآية 120.

[41] سورة فاطر الآية 43.

[42] سورة الأنعام، الآية 123.

– ارتقاء القرآن الكريم في تأطيره للظاهرة التاريخية إلى مستوى الحديث عن المجتمعات الإنسانية بمستوياتها وفق تقسيم تاريخي جديد يحدد تراتبيتها حسب درجة الإيمان والموقف من العقيدة. وتندرج في هذا الإطار الآيات التي تتحدث عن المؤمنين والكفار والمشركين والمنافقين. وتعتبر هذه الآيات أيضا مجالا لتعزيز أهمية المقاصد المعرفية والمنهجية لدراسة المعرفة التاريخية في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم حين يقوم بالتصنيف التاريخي والتفييء الاجتماعي وتحديد الطبقات المؤسِّسة للبنيات الحضارية فهو بذلك يقدم منهج التصنيف ونتيجته المتمثلة في مخرجاته المعرفية.

تعتبر هذه الدراسة محطة تأسيسية لما بعدها؛ حيث إن تفعيل مقصدي الضرورة المنهجية والكفاية المعرفية لمصدرية القرآن في دراسة التاريخ هو ما يخول اعتماد القرآن مصدرا أعلى للمعرفة التاريخية، وهو ما يفتح الآفاق نحو الحديث عن الوجهة الإسلامية لعلم التاريخ. ويوضح الدكتور مُحَمَّد عز الدين توفيق المقصود بالوجهة الإسلامية لعلم من العلوم من خلال قوله: "تنبثق الوجهة الإسلامية للعلم عن التصور الإسلامي للوجود والمعرفة؛ الوجود بجانبيه الغيبي والمحسوس والمعرفةُ بمصدريها الإلهي والبشري. فالفرق الجوهري بين الوجهة الإسلامية للعلم والوجهة السائدة هو أن الوجهة الإسلامية لا ترى العلم البشري وحده كافيا لطرح نظرة حقيقية وواقعية للكون والإنسان، بل لابد من علم ثابت يقابل العلم المتغير الذي يطبع كل ما هو بشري، وليس هذا العلم إلا العلم الإلهي الذي يقول الكلمة الأخيرة في المعلومات البشرية حول الواقع والإدراكات الإنسانية لهذا الواقع (...) هي وجهة جعلها العلم الإلهي إطارا للعلم البشري يتسع للابتكار والتجديد."[43]

إن أفق الوجهة الإسلامية لعلم التاريخ الذي تفتحه مقاصد دراسة المعرفة التاريخية في القرآن سيعيد النظر في ترتيب مصادر المعرفة التاريخية ليصبح مستهلها من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة بصفتها مبينة للقرآن. وهذا المعنى يصبح الوحي بمصدريه ذا مصداقية بنفسه، ولا يحتاج إلى إجراء التجارب كمدخل لاختبار ما أخبر به وشرط لقبوله. إن إقامة الدراسات التاريخية على دعامة مقصدي الضرورة المنهجية والكفاية المعرفية لمصدرية القرآن من شأنه أن يصحح منهج النظر في الدراسات التاريخية، لأنه يعتمد على القرآن الذي شكل نزوله أكبر حركة تصحيحية لتاريخ البشرية.

المراجع

Al-Qur'an al-Kareem.

Abū Zayd, Naṣr Ḥāmid. *Naqd al-Khiṭāb al-Dīnī*. 3rd ed. Beirut-Lebanon: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 2007.

Al-Alwani, Taha Jabir. *Islah al-Fikr al-Islami bayna al-Qudrat wa al-A'qabat*. Working Paper. 1st ed. Cairo: Dar al-Qari' al-Arabi, 1991.

Al-Jābirī, Muḥammad ʿĀbid. *Madkhal ilā al-Qurʾān al-Karīm*. 1st ed. Beirut: Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-ʿArabīyah, 2006.

[43] مُحَمَّد عز الدين توفيق، *التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور* الإسلامي، ط1. (القاهرة: دار السلام، 1418هـ/ 1998م)، ص180.

Al-Kafīshī, ʿĀmir. *Ḥarakat al-Tārīkh fī al-Qurʾān al-Karīm*. 1st ed. Beirut: Dār al-Hādī lil-Ṭibāʻah wa-al-Nashr wa-al-Tawzīʻ, 2003.

Al-Kattani, Muhammad. *Judal al-Aql wa al-Naql fi Manahij al-Tafkir al-Islami: fi al-Fikr al-Islami al-Hadith*. 1st ed. Casablanca: Dar al-Thaqafah, 2000.

Al-Qurtubi, Muhammad ibn Ahmad. *Al-Jami' li Ahkam al-Qur'an*. Edited by Ahmad Abd al-Alim al-Barduni. 2nd ed. Cairo: Dar al-Sha'b, 1372 AH.

Arkoun, Mohammed. *Al-Qurʾān min al-Tafsīr al-Mawrūth ilā Taḥlīl al-Khiṭāb al-Dīnī*. Translated by Hāshim Ṣāliḥ. 1st ed. Beirut: Dār al-Ṭalīʿah, 2001.

Hishōr, Muḥammad. *Sunan al-Qur'ān fī Qiyām al-Ḥaḍārāt wa-Suqūṭihā*. 1st ed. Cairo: al-Maʻhad al-ʻĀlamī li-l-Fikr al-Islāmī, 1996.

Ibn ʿAbd Rabbih al-Andalusī, Aḥmad ibn Muḥammad. *Al-ʿIqd al-Farīd*. Edited by Muḥammad Saʿīd al-ʿAryan. 2nd ed. Cairo: al-Maktabah al-Tijārīyah, 1953.

Khalīl, ʿImād al-Dīn. *Madkhal ilā Islāmīyat al-Maʿrifah maʿ Mukhaṭṭaṭ Muqtaraḥ li-Islāmīyat ʿIlm al-Tārīkh*. 3rd ed. Rabat: Maktabat wa-Maṭbaʻat al-Umnīyah, 1992.

Khalīl, Muḥammad Rashād. *Al-Manhaj al-Islāmī li-Dirāsat al-Tārīkh wa-Tafsīrih*. 1st ed. Casablanca: Dār al-Thaqāfah, 1986.

Khrūbāt, Muḥammad. *Al-Fikr al-Islāmī al-Muʻāṣir: Dirāsah fī al-Tadāfuʻ al-Ḥaḍārī*. 1st ed. Casablanca: Maṭbaʻat Ībāj, 1998.

Luḥaylḥ, ʿAbd Allāh ʿĪsā. *Al-Jadaliyyah al-Tārīkhiyyah fī al-Qurʾān al-Karīm*. al-Wisām al-ʿArabī li-al-Nashr wa-al-Tawzīʿ, 2011.

Mouchot, Claude. *Introduction aux sciences sociales et à leurs méthodes***.** 1ère ed. Collection transmission de la connaissance. Les éditions Toubkal, Presses universitaires de Lyon, 1986.

Neuwirth, Angelika. *Al-Qurʾān wa-al-Tārīkh: ʿAlāqah Jadaliyyah, Taʾammulāt ḥawla Tārīkh al-Qurʾān wa-al-Tārīkh fī al-Qurʾān*. Translated by Islām Aḥmad. Markaz Tafsīr li-al-Dirāsāt al-Qurʾānīyah. n.d.

Qutb, Sayyid. *Fi Zilal al-Qur'an*. 17th ed. Cairo - Beirut: Dar al-Shuruq, 1412 AH.

Tawfiq, Muhammad Izz al-Din. *Al-Ta'sil al-Islami li al-Dirasat al-Nafsiya: Al-Bahth fi al-Nafs al-Insaniya wa al-Manẓur al-Islami*. 1st ed. Cairo: Dar al-Salam, 1998.